

خَلْقُ أُمَّ فَوْضَى: الْعِلْمُ الْحَدِيثُ وَوُجُودُ اللَّهِ

المحاضرة ٢: الإيمان والمنطق

أ.ر. سي. سرول

قَرَأْتُ مُؤَخَّرًا رِوَايَةً احْتَوَتْ عَلَى نِقَاشٍ دَارَ بَيْنَ كَاهِنٍ وَعَالِمٍ. وَأَثْنَاءَ الْحَدِيثِ، قَالَ الْعَالِمُ لِلْكَاهِنِ: "حَدَّثَنِي عَنْ إِيْمَانِكَ وَسَأَحَدُّكَ عَنْ مَنْطِقِي"، وَاصْفًا هَذَا الْجَدَلِ الدَّائِرَ بَيْنَهُمَا عَلَى أَنَّهُ صِرَاعٌ بَيْنَ الْإِيْمَانِ وَالْمَنْطِقِ. لَا يَخْتَلِفُ هَذَا كَثِيرًا عَنْ بَعْضِ الْإِحْتِلَافَاتِ فِي الرَّأْيِ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجَتِي، حَيْثُ تَدَدَّمَرُ أَحْيَانًا قَائِلَةً: "لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُجَادِلَكَ. فَأَنْتَ تَبْغِي دَائِمًا اللُّجُوءَ إِلَى الْمَنْطِقِ، فِي حِينِ أَنَّنِي فَقَطُّ أَعْلَمُ بِحَدْسِي أَنَّ هَذَا الرَّأْيَ خَاطِئٌ". فَأُجِيبُهَا: "الرَّجُلُ الْمُتَسَلِّحُ بِالْمَنْطِقِ لَنْ يَقَعَ الْبَتَّةَ تَحْتَ رَحْمَةِ حَدْسِ امْرَأَةٍ". لَدَيْنَا إِذَنْ خِلَافَاتُنَا الْبَسِيطَةُ حَوْلَ هَذَا الْفَضْلِ نَفْسِهِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ. لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هَذَا هُوَ تَصَوُّرُنَا الْيَوْمَ، أَنَّ الْلَاهُوتَ يَنْطَوِي عَلَى قَفْرَةِ إِيْمَانٍ، فِي حِينِ يَنْطَوِي الْعِلْمُ عَلَى سَعْيٍ قَوِيٍّ وَحَثِيثٍ وَرَاءَ الْعُقْلَانِيَّةِ، وَكَأَنَّ الْإِيْمَانَ وَالْمَنْطِقَ مُنْفَصِلَانِ تَمَامًا. يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَيْضًا مَسْأَلَةَ الْمَنْهَجِيَّةِ. نَقُولُ: "هَذَا الرَّجُلُ يَتَّبِعُ مَنْهَجِيَّةً حَتَّى فِي تَصَرُّفَاتِهِ الْغَرِيبَةِ". حَسَنًا، أَيُّ بَحْثٍ عَنِ الْحَقِيقَةِ، سَوَاءً فِي مَجَالِ الْلَاهُوتِ أَوْ الْفَلَسَفَةِ أَوْ الْعِلْمِ، يَنْطَوِي عَلَى تَطْبِيقِ مَنْهَجِيَّةٍ مَا، وَتِلْكَ الْمَنْهَجِيَّةُ قَدْ تَشْمَلُ أَوْ لَا تَشْمَلُ اعْتِمَادًا عَلَى الْمَنْطِقِ.

فِي الْمَحَاضِرَةِ الْأُولَى، تَحَدَّثْنَا عَنْ كَوْنِ الْعِلْمِ وَاللَّاهُوتِ كِلَاهُمَا مَعْنِيَيْنِ بِالْخُلَاصِ. وَالْخُلَاصُ الْأَسَاسِيُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَالِمِ هُوَ إِتْقَادُ الظَّوَاهِرِ، مِثْلَمَا اقْتَرَحَ أَفْلَاطُونٌ. وَتَحَدَّثْتُ عَنْ ثَوْرَةٍ أُنْدَلَعَتْ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ بِسَبَبِ نَظَرِيَّاتِ كُوبَرْنِيكُوسَ، عُرِفَتْ بِالثَّوْرَةِ الْكُوبَرْنِيكِيَّةِ. وَكَمَا ذَكَرْتُ، قُوْبَلْ هَذَا بَرْدٌ فِعْلٍ عَنِيْفٍ مِنَ الْكَنِيسَةِ. وَوَضَعَ جَالِيْلِيُو تَحْتَ الْحُظْرِ الْبَابَوِيِّ. لَكِنْ لَمْ تَكُنِ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ وَحْدَهَا مُعَارِضَةً لِكُوبَرْنِيكُوسَ وَنَظَرِيَّاتِهِ، بَلْ إِنَّ حَرَكَةَ الْإِصْلَاحِ الْوَالِدَةِ أَيْضًا، الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، كَانَتْ مَوْفِقَةً مُعَارِضَةً تَمَامًا لِكُوبَرْنِيكُوسَ. وَمَثَلًا، الْمُصْلِحَانِ الْبَارِزَانِ لِلْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، جُونْ كَالْفَنْ وَمَارْتِنُ لُوْتِرُ، اعْتَبَرَا نَظَرِيَّاتِ كُوبَرْنِيكُوسَ سَخِيفَةً. السُّؤَالُ الْآنَ هُوَ: "لِمَ كُلُّ هَذِهِ الضَّجَّةِ؟" اعْتَقَدَ هُوَ لِأَنَّ مِصْدَاقِيَّةَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ عَلَى الْمِحَاكِ، وَأَنَّ آرَاءَ الْبَشَرِ سَتَحُلُّ مَحَلَّ الْإِعْلَانِ الْإِلَهِيِّ.

وَالسُّؤَالُ الْآنَ هُوَ: "لِمَ اعْتَقَدَ لَاهُوتِيُو ذَلِكَ الْعَصْرِ أَنَّ مِصْدَاقِيَّةَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ عَلَى الْمِحَاكِ؟" حَسَنًا، إِنْ نَظَرْتُمْ إِلَى تَعَالِيمِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَمَا يَقُولُهُ عَنِ الطَّبِيعَةِ وَالظَّوَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، نَقْرَأُ مَثَلًا فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَصْفًا لِلشَّمْسِ بِأَنَّهَا تَتَحَرَّكُ عَبْرَ السَّمَاوَاتِ. وَيَبْدُو وَاضِحًا مِنَ النُّصُوصِ الْكِتَابِيَّةِ أَنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ يَتَّبِعِي مَنْظُورًا عَنْ عِلْمِ الْكُونِيَّاتِ، وَعَنْ عِلْمِ الْفَلَكِ وَالْفِيْزِيَاءِ، يَفْتَرِضُ أَنَّ الْأَرْضَ ثَابِتَةٌ وَأَنَّ الشَّمْسَ تَدُورُ فِي مَدَارٍ حَوْلَ الْأَرْضِ. إِذَنْ، إِنْ قَبَلْنَا بِالنَّظَرِيَّةِ الْكُوبَرْنِيكِيَّةِ بِأَنَّ الشَّمْسَ هِيَ مَرْكَزُ الْمَجْمُوعَةِ الشَّمْسِيَّةِ، وَلَيْسَتْ الْأَرْضُ، تَرَوْنَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ

يَحَلُّ بِمُصَدَّقِيَّةِ الْوَثَائِقِ الْكِتَابِيَّةِ. لِهَذَا احْتَدَمَ الْجَدُلُ، إِلَى أَنْ هَذَا النَّاسُ قَلِيلًا وَقَالُوا: "مَهَلًا". حِينَ يَصِفُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ الْعَالَمَ الْحَارِجِيَّ، وَحِينَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الظَّوَاهِرِ الَّتِي نَلَاظُهَا، يَسْتَعْمِلُ لُغَةً نَسَمِيهَا بِبَسَاطَةٍ "لُغَةً ظَوَاهِرِيَّةً"، أَوْ "لُغَةً الظَّوَاهِرِ". أَمَّا إِنَّا نَصِفُ الْأَشْيَاءَ كَمَا تَبْدُو لِلْعَيْنِ الْمُجَرَّدَةِ. وَبِالطَّبَعِ، عِنْدَمَا وَصَفَ كِتَابُ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ الْيَوْمَ كَمَا يَبْدُو لَهُمْ، قَالُوا إِنَّ الشَّمْسَ تَتَحَرَّكُ فِي السَّمَاءِ، لِأَنَّهَا حِينَ تَقِفُ عَلَى الْأَرْضِ وَتَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، مَاذَا تَرَى؟ وَمَاذَا تَكُونُ خَبْرَتُنَا الظَّوَاهِرِيَّةُ؟ يَبْدُو وَاضِحًا تَمَامًا لِلْحَوَاسِّ أَنَّ الشَّمْسَ تَتَحَرَّكُ وَأَنَّهَا تَابِتُونَ. لَكِنِ الْآنَ بَيْنَمَا أَتَحَدَّثُ، وَوَفْقَ النَّظَرِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، أَنَا أَدُورُ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ، فِي مَدَارٍ، وَلَا أَعْلَمُ إِذَا كُنْتُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ فِي وَضْعٍ مُسْتَقِيمٍ أَمْ مَقْلُوبًا، وَفِي أَيِّ طَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ أَقِفُ الْآنَ. الْفِطْرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ تَقُولُ إِنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْأَرْضُ كُرْوِيَّةً، فَلَا يُمَكِّنِي الْعَيْشُ إِلَّا فِي الْجُزْءِ الْعُلْوِيِّ مِنْهَا، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يُقَدِّرُ لَهُ الْعَيْشُ فِي الْجُزْءِ السُّفْلِيِّ مِنَ الْكُوكَبِ سَيَسْفُطُ. أَوْ إِنْ كَانَتْ الْأَرْضُ تَدُورُ حَقًّا حَوْلَ مَحْوَرِهَا، فَسَنَشْعُرُ جَمِيعًا بِدَوَارٍ طَوَالَ الْوَقْتِ. هَذَا مَا نُسَمِّيهِ "الْفِطْرَةَ الطَّبِيعِيَّةَ". وَكَيْفَ نَسْتَخْدِمُ كَلِمَةَ "فِطْرَةَ" هُنَا؟ هِيَ الشُّعُورُ الْمُشْتَرِكُ، وَالْعَامُّ، وَالظَّوَاهِرِيُّ الَّذِي نَشْعُرُ بِهِ جَمِيعًا. هَلْ تَتَوَقَّعُ حَقًّا مِنْ كِتَابِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مِنْذُ قُرُونٍ أَنْ يُقَدِّمُوا نَظَرِيَّاتٍ عِلْمِيَّةً مُجَرَّدَةً وَمُتَخَصِّصَةً؟ لَكِنَّهُمْ كَانُوا مَعْنِيَّيْنِ فِي الْأَسَاسِ بِعَمَلِ اللَّهِ فِي التَّارِيخِ، وَفِدَاءِ اللَّهِ، وَتَحَقُّقِ وَعُودِهِ فِي هَذَا الْجَانِبِ مِنَ الْعَالَمِ الطَّبِيعِيِّ. أَمَّا آيَاتُ عَمَلِ الْعَالَمِ الطَّبِيعِيِّ، فَوَصِفَتْ بِلُغَةٍ ظَوَاهِرِيَّةٍ.

قَدْ يَنْظُرُ إِلَيَّ أَحَدُهُمْ وَيَقُولُ: "هَذَا التِّمَاسُ لِلْأَعْدَارِ. فَإِنَّكَ بَدَلْتَ كُلَّ هَذَا الْجُهْدِ كَيْ تُنْقِذَ مُصَدَّقِيَّةَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ". بَلْ أَنَا أَحَاوِلُ إِتْقَادَ مُصَدَّقِيَّةِ اللُّغَةِ، كَمَا نَسْتَخْدِمُهَا فِي حَدِيثِنَا الْعَادِيِّ. أَسْتَعْمِلُ كَثِيرًا مِثَالِ مُشَاهَدَةِ النَّشْرَةِ الْجُويَّةِ الْيَوْمِيَّةِ عَلَى التِّلْفَازِ. وَهِيَ حَتَّى لَمْ تُعَدُّ تُسَمَّى "النَّشْرَةُ الْجُويَّةُ"، بَلْ "نَشْرَةُ الْأَرْصَادِ الْجُويَّةِ". وَعَلَى مُذِيعِ النَّشْرَةِ أَنْ يَكُونَ حَاصِلًا عَلَى شَهَادَةٍ فِي عِلْمِ الْأَرْصَادِ. وَكَلِمَةُ "مِيْتِيُورُولُوجِي" (meteorology) لَافْتَةٌ لِأَنَّهَا تُعُودُ إِلَى الْعَالَمِ الْقَدِيمِ وَمَفْهُومِهِ عَنْ تَأْثِيرِ التِّيَازِكِ "مِيْتِيُورُز" (meteors) فِي الطَّقْسِ. لَكِنَّا مَا زِلْنَا نَسْتَخْدِمُ تَعْبِيرَ "الْأَرْصَادِ الْجُويَّةِ". وَيَظْهَرُ مُذِيعُ النَّشْرَةِ عَلَى شَاشَةِ التِّلْفَازِ، وَيَعْرُضُ الرُّسُومَ، مُبَيِّنًا أَنْظِمَةَ الضَّغْطِ الْمُرْتَفِعِ، وَأَنْظِمَةَ الضَّغْطِ الْمُنْخَفِضِ، وَالضَّغْطِ الْجُويِّ، وَاحْتِمَالَاتِ سُقُوطِ الْأَمْطَارِ. وَنُسْتَخْدِمُ كُلَّ تِلْكَ الْمُصْطَلِحَاتِ الصَّعْبَةِ، فِي حِينَ كُلُّ مَا أُرِيدُ مَعْرِفَتَهُ هُوَ "هَلْ يَجِبُ أَنْ أَخَذَ مِظَلَّتِي مَعِي إِلَى الْعَمَلِ أَمْ لَا؟" وَيَعَدُّ كُلَّ هَذَا الْكَلَامِ التَّقْنِيِّ، وَفِي خِتَامِ النَّشْرَةِ الْجُويَّةِ، يُقَدِّمُ مُلَخَّصَ بَسِيطٍ، تُعْرَضُ فِيهِ حَالَةُ الطَّقْسِ لِهَذَا الْيَوْمِ، ثُمَّ يُضَيِّفُونَ: "تُشْرِقُ الشَّمْسُ عِنْدَ ٦:٤٥ صَبَاحًا، وَتَغِيبُ عِنْدَ ٦:٢٣ مَسَاءً". مَاذَا نَفْعَلُ عِنْدَئِذٍ؟ هَلْ نَهْرَعُ إِلَى هَوَاتِفِنَا وَنَتَّصِلُ بِمَحَطَّةِ الْبَثِّ وَنَقُولُ: "أَلَمْ تَسْمَعُوا عَنْ كُوبِرْنِيكُوسِ؟ أَمَّا زِلْثُمْ تُحَاوِلُونَ إِفْنَاعَنَا بِأَنَّ الشَّمْسَ تُشْرِقُ وَتَغِيبُ؟ يَا لِحَمَاقَتِنَا الَّتِي أَعَمَّتْنَا طَوَالَ تِلْكَ الْقُرُونِ عَنِ الْإِسْتِنْتِجَاتِ الْوَاضِحَةِ وَالْمُؤَكَّدَةِ لِلْجَالِيلِيُو وَكُوبِرْنِيكُوسِ وَالْآخَرِينَ! لَا أَحَدٌ يَتَدَمَّرُ لِأَنَّهَا نُدْرِكُ أَنَّهَا نَسْتَعْمِلُ لُغَةً الظَّوَاهِرِ.

حِينَ نَأْتِي إِلَى الْعِلْمِ، أَحَدُ أَهَمِّ التَّطَوُّرَاتِ الَّتِي نَتَجَتُ عَنِ الثَّوْرَةِ الْكُوبِرْنِيكِيَّةِ هُوَ بَعْضُ التَّعْدِيلِ فِي مَنَهْجِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ بَيِّنَاتِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ. تَعَلَّمْنَا جَمِيعًا فِي طُفُولَتِنَا بِالْمَدْرَسَةِ مَلْخَصًا بَسِيطًا لِمَا يُسَمَّى "الْمَنَهْجِ الْعِلْمِيِّ"، الْمَنَهْجِ الْعِلْمِيِّ. وَحِينَ نَنْظُرُ إِلَى الْمَنَهْجِ الْعِلْمِيِّ، نُلَاحِظُ وَجُودَ عُنْصَرَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ مُهِمَّيْنِ لِلْعَايَةِ، يَقْتَرِنَانِ مَعًا فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَى الْحَقِيقَةِ. وَالْعُنْصَرَانِ الْمُهْمَانِ اللَّذَانِ يُشْكَلَانِ مَعًا الْمَنَهْجِ الْعِلْمِيِّ نُسَمِّيهِمَا الْإِسْتِقْرَاءَ وَالْإِسْتِنْبَاطَ. يُسَمَّى هَذَا الْمَنَهْجُ أحيانًا بِاسْمِ آخَرَ، وَهُوَ "الْمَنَهْجُ التَّحْلِيلِيُّ". نَصِفُ أحيانًا مُجْتَمَعَنَا الْيَوْمَ بِأَنَّهُ مُجْتَمَعٌ "مَا بَعْدَ الْحَدَاثَةِ" أَوْ "مَا بَعْدَ التَّنْوِيرِ"، لِيَكُونَ لَدِينَا مُؤَشِّرٌ عَن مَوْقِعِنَا فِي مَسَارِ التَّارِيخِ. نَعُودُ بِالذَّاكِرَةِ إِلَى تَنْوِيرِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ، الَّذِي عُرِفَ فِي اللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ بِاسْمِ "أَوْفْلُورُونْج" (Aufklärung). كَانَ أَحَدَ عَنَاصِرِ التَّنْوِيرِ هُوَ وَضْعُ مَنَهْجٍ لِلتَّعَامُلِ مَعَ الْحَقَائِقِ، يُسَمَّى بِالْمَنَهْجِ التَّحْلِيلِيِّ، وَالَّذِي كَانَ مُجَرَّدَ صَفْلِ لِلْمَنَهْجِ الْعِلْمِيِّ الْكِلَاسِيكِيِّ. وَعَرَفَ الْمَنَهْجُ التَّحْلِيلِيُّ نَفْسَهُ فِي كَلِمَاتٍ بَسِيطَةٍ، بِأَنَّهُ مُهِمَّةُ الْعَالِمِ الَّتِي تَقْتَضِي اِكْتِشَافَ مَنْطِقِيَّةِ الْحَقَائِقِ. دَعَوْنِي أُكْرِرُ هَذَا: اِكْتِشَافَ مَنْطِقِيَّةِ الْحَقَائِقِ.

ذَاتَ مَرَّةٍ نَصَحَنِي مُسْتَشَارٌ مَالِيٌّ قَائِلًا: "إِذَا أَرَدْتَ اتِّخَاذَ قَرَارَاتٍ بِشَأْنِ كَيْفِيَّةِ تَفْسِيمِ مَوَارِدِكَ، تَلَزِمَكَ مَعْلُومَاتٌ حَتَّى تَتَّخِذَ قَرَارَاتٍ ذَكِيَّةً وَمُسْتَنِيرَةً. تَلَزِمَكَ الْمَعْلُومَاتُ الصَّحِيحَةَ، وَيَلَزِمَكَ قَدْرٌ كَافٍ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الصَّحِيحَةِ". ثُمَّ قَالَ - وَكَانَ مُحِقًّا تَمَامًا: "إِذَا حَصَلَتْ عَلَى مُعْطِيَّاتٍ كَافِيَةٍ، عَلَى افْتِرَاضِ أَنَّ الْمُعْطِيَّاتِ دَقِيقَةٌ وَصَّحِيحَةٌ"، قَالَ: "سَتَأْتِيكَ الْقَرَارَاتُ تَلَقَائِيًّا". مَاذَا كَانَ يَقْصِدُ؟ فَقَطَّ كَانَ يُطَبِّقُ الْمَنَهْجَ التَّحْلِيلِيَّ، وَيَقُولُ: "اجْمَعِ أَكْبَرَ قَدْرٍ مُمَكِّنٍ مِنَ الْمُعْطِيَّاتِ، وَأَكْبَرَ قَدْرٍ مُمَكِّنٍ مِنَ الْحَقَائِقِ، وَلاَحِظْ إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ أُنْمَاطٌ تَظْهَرُ، وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ مَنْطِقٌ يَتَّبَلُورُ". هَذَا مَا نَفْعَلُهُ فِي الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ، أَيُّ نَسْتُخْدِمُ كُلًّا مِنَ الْإِسْتِقْرَاءِ وَالْإِسْتِنْبَاطِ.

نَتَذَكَّرُ جَمِيعًا أَنَّنَا فِي طُفُولَتِنَا تَعَلَّمْنَا الْفَرْقَ بَيْنَ الْإِسْتِقْرَاءِ وَالْإِسْتِنْبَاطِ. رَبِّمَا نَتَذَكَّرُ أَنَّنَا تَعَلَّمْنَا هَذَا الْفَرْقَ، لَكِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّنَا نَتَذَكَّرُ الْفَرْقَ نَفْسَهُ. قَرِيبًا يَتَعَثَّرُ الْبَعْضُ مِنَّا فِي مُحَاوَلَةِ شَرْحِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِسْتِقْرَاءِ وَالْإِسْتِنْبَاطِ. الْفَرْقُ بِبَسَاطَةٍ هُوَ: فِي عَمَلِيَّةِ الْإِسْتِقْرَاءِ، مَا نَفْعَلُهُ هُوَ أَنَّنَا نَنْتَقِلُ مِنَ الْخَاصِّ إِلَى الْعَامِّ. فَالْإِسْتِقْرَاءُ يَنْطَوِي عَلَى التَّجْرِبِ، وَالْمُلاَحَظَةِ، وَجَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ، إِلَى آخِرِهِ. فَإِنَّا نَرَى سُنْجَابًا، وَنُلَاحِظُ أَنَّ لَهُ ذَبْلًا كَثِيفًا. ثُمَّ نَرَى سُنْجَابًا آخَرَ، وَإِذَا ذَبْلُهُ كَثِيفٌ. ثُمَّ نَرَى سُنْجَابًا ثَالِثًا وَإِذَا ذَبْلُهُ كَثِيفٌ. وَنَعَاوِدُ الْكِرَّةَ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ لَدِينَا آلاَفُ وَآلاَفُ الْأُمَثِلَةِ مِنَ السَّنَاجِبِ. ثُمَّ نَنْظُرُ إِلَى كُلِّ تِلْكَ التَّفَاصِيلِ الْخَاصَّةِ، وَإِذْ نَعْلَمُ أَنَّهُ يُعَوِّزُنَا الْوَقْتُ وَالْقُدْرَةُ لِدِرَاسَةِ كُلِّ سُنْجَابٍ يَعِيشُ فِي الْكُونِ، نَمِيلُ إِلَى التَّعْمِيمِ، مُسْتَخْلِصِينَ اسْتِنْتِاجًا عَامًّا مِنَ الْبَيِّنَاتِ الْخَاصَّةِ الَّتِي دَرَسْنَاها، فَنتَوَصَّلُ إِلَى قَاعِدَةٍ، وَهِيَ مَاذَا؟ أَنْ كُلَّ السَّنَاجِبِ لَهَا أَذْيَالٌ كَثِيفَةٌ، مَا لَمْ تَقْطَعْ جَزَاةُ الْعُشْبِ أَحَدَهَا. فَإِنَّا نَنْتَقِلُ اسْتِنْفَرَائِيًّا مِنْ مُعْطِيَّاتِنَا، الَّتِي نَقِيسُها، وَنُلَاحِظُها، وَنَجْمَعُها، وَنَحْلُلُها، ثُمَّ نَتَوَصَّلُ إِلَى اسْتِنْتِاجَاتِنَا الْمُسْتَوْحَاةِ مِمَّا نُسَمِّيهِ بِالْحَقَائِقِ.

هَذَا قُطْبٌ مِنْ أَقْطَابِ الْمُنْهَجِ الْعِلْمِيِّ. الْجُزْءُ الْآخَرُ مِنَ الْمُنْهَجِ الْعِلْمِيِّ يَتَعَلَّقُ بِالِاسْتِنْبَاطِ، الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى الْإِنْتِقَالِ مِنَ الْعَامِّ إِلَى الْخَاصِّ. أَشْهُرُ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ هُوَ الْقِيَاسُ الْإِفْتِرَائِيُّ، وَأَشْهُرُ مِثَالٍ لِلْقِيَاسِ الْإِفْتِرَائِيِّ تَعَلَّمْتُمُوهُ أَيْضًا فِي الْمَرْحَلَةِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ. "جَمِيعُ الْبَشَرِ فَانُونَ". أَيُّ نَوْعٍ مِنَ التَّضَرُّيحاتِ هَذَا؟ "جَمِيعُ الْبَشَرِ فَانُونَ" هَذَا حُكْمٌ عَامٌّ. نُذَلِّي هُنَا بِتَضَرُّيحٍ عَنِ جَمِيعٍ مَنْ يَنْتُمُونَ إِلَى فِئَةٍ مُعَيَّنَةٍ. جَمِيعُ الْبَشَرِ فَانُونَ. وَبِمَا أَنَّ سُقْرَاطَ إِنْسَانٌ. إِذَنْ مَاذَا؟ سُقْرَاطُ فَانٍ. هَلْ هَذِهِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ؟ أَرَأَيْكُمْ مُتَحَرِّينَ. يَجِبُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْجَوَابُ الْآنَ تَلْقَائِيًّا. هَلْ هَذِهِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ؟ جَمِيعُ الْبَشَرِ فَانُونَ. وَسُقْرَاطُ إِنْسَانٌ. إِذَنْ، سُقْرَاطُ فَانٍ. هَلْ هَذَا صَحِيحٌ؟ لَا، هُزُّ رَأْسِكَ هَكَذَا. هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ. فَالْحُجْبُجُ لَا تَكُونُ صَحِيحَةً أَوْ خَاطِئَةً، بَلْ تَكُونُ إِمَّا مَشْرُوعَةً أَوْ غَيْرَ مَشْرُوعَةٍ. التَّضَرُّيحاتُ تَكُونُ إِمَّا صَحِيحَةً أَوْ خَاطِئَةً. خَدَعْتُمْ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ هَلْ هَذِهِ حُجَّةٌ مَشْرُوعَةٌ؟ نَعَمْ، هِيَ مَشْرُوعَةٌ. قَدْ يَكُونُ الْإِسْتِنْتِاجُ خَاطِئًا، مَعَ أَنَّ الْحُجَّةَ مَشْرُوعَةً، لِأَنَّ الْإِسْتِنْتِاجَ يَتَوَقَّفُ عَلَى صِحَّةِ الْفَرْضِيَّاتِ أَوْ التَّضَرُّيحاتِ. هَلْ نَحْنُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ فَانُونَ؟ بَعْضُكُمْ يَهْزُ رَأْسَهُ. لَا، لَسْنَا عَلَى يَقِينٍ. فَلَسْنَا نَعْرِفُ ذَلِكَ اسْتِفْرَائِيًّا. هَلْ فَحَصْنَا كُلَّ إِنْسَانٍ عَاشَ يَوْمًا لِتَتَأَكَّدَ أَنَّهُ مَاتَ؟ وَكَمْ عَدَدُ الَّذِينَ لَمْ يَمُوتُوا بَعْدُ؟ جَمِيعُ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ أَحْيَاءً. يُمَكِّنُ التَّأَكُّدُ مِنْ أَنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ فَانُونَ فَقَطْ بَعْدَ مَوْتِ الْجَمِيعِ، لِأَنَّهُ حَتَّى وَإِنْ كُنْتَ آخِرَ إِنْسَانٍ حَيٍّ عَلَى هَذَا الْكَوْكَبِ، رُبَّمَا تَكُونُ الْإِسْتِنْتِاءَ الْوَحِيدَ. لَكِنَّ لَدَيْنَا عَيْنَةٌ مَعْقُولَةٌ، أَوْ مَجْمُوعَةٌ مَعْقُولَةٌ مِنَ الْحَالَاتِ الْخَاصَّةِ يُمَكِّنُ أَنْ نَسْتَخْلِصَ مِنْهَا الْإِسْتِنْتِاجَ بِأَنَّ جَمِيعَ الْبَشَرِ فَانُونَ. إِذَا كَانَ هَذَا التَّضَرُّيحُ صَحِيحًا، وَإِذَا كَانَ جَمِيعُ الْبَشَرِ فَانِينَ، وَإِذَا كَانَ سُقْرَاطُ إِنْسَانًا، فَمَاذَا عَنِ الْإِسْتِنْتِاجِ؟ هَلْ هُوَ أَكِيدٌ أَمْ غَيْرُ أَكِيدٍ؟ أَكِيدٌ تَمَامًا. فَإِذَا كَانَ جَمِيعُ الْبَشَرِ فَانِينَ، وَإِذَا كَانَ سُقْرَاطُ إِنْسَانًا، يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ سُقْرَاطَ أَيْضًا فَانٍ. هَذَا هُوَ الْجَانِبُ الْإِسْتِنْبَاطِيُّ، الَّذِي يَسْتَعْمِلُ الْمَنْطِقَ. الْإِسْتِفْرَاءُ هُوَ الْجَانِبُ الشَّكْلِيُّ. عُذْرًا، هُوَ الْجَانِبُ الْمَادِّيُّ. يَنْطَوِي الْإِسْتِفْرَاءُ عَلَى اسْتِخْدَامِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، وَأَدَوَاتٍ مُتَطَوِّرَةٍ كَالْمِجْهَرِ وَالْتِلِسْكُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ لِمُلاحَظَةِ التَّفَاصِيلِ. وَلَنْ نُمَارِسَ عِلْمًا سَلِيمًا إِنْ تَجَاهَلْنَا الْمُعْطِيَّاتِ.

سَمِعْتُمْ التَّعْبِيرَ الْقَائِلَ: "هَذَا الرَّجُلُ لَنْ يَسْمَحَ لِلْحَقَائِقِ بِالْوُقُوفِ فِي طَرِيقِ حُجَّتِهِ". أَوْ قَدْ نَقُولُ: "لَا تُشَوِّشْ عَلَيَّ بِالْحَقَائِقِ". وَيَقُولُ الْبَعْضُ: "لَا تُعْطِنِي حَقَائِقُ قَدْ تَتَحَدَّى مَنْظُومَتِي". لَكِنَّ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ يُحَاوِلُ إِنْقَاذَ الظَّوَاهِرِ وَنَحْنُ نَصَادِفُ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ بِالْحَوَاسِّ. فَلَنْ أَعْرِفَ بِوُجُودِ طَبْشُورَةٍ هُنَا بِنَاءً عَلَى مَنْطِقِ اسْتِدْلَالِيٍّ مُحْضٍ. فَلَا يَسْعُنِي التَّسَلُّ إِلَى عَقْلِ دِيكَارْتِ وَاسْتِنْتِاجِ وُجُودِ هَذِهِ الطَبْشُورَةِ. لَكِنِّي مَدْفُوعٌ إِلَى تَصَدِيقِ وُجُودِ طَبْشُورَةٍ هُنَا لِأَنِّي أَرَاهَا، وَأَشْعُرُ بِهَا، وَأَتَوَاصَلُ مَعَهَا بِحَوَاسِّي. فَهِيَ جُزْءٌ مِنَ الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ، الَّذِي يُمَكِّنُ إِدْرَاكَهُ، أَيَّ عَالَمِ الظَّوَاهِرِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ، أَفْحَصُ هَذِهِ الطَبْشُورَةَ وَمَجْمُوعَةً مِنَ الطَّبَاشِيرِ الْآخَرَى، وَأَحَاوِلُ أَنْ أَرَى بِالْمَنْطِقِ مَا تَشْتَرِكُ فِيهِ مَعًا مِنْ خَصَائِصِ طَبْشُورِيَّةٍ.

سَنَتَبَحَّرُ أَكْثَرَ فِي دَوْرِ الْمُنْطِقِ فِي الْعِلْمِ، لَكِنَّ الْأُزْمَةَ الْيَوْمَ، بِرَأْيِي، بَيْنَ اللَّاهُوتِ وَالْعِلْمِ، الَّتِي أَرْجُو أَنْ أُبَيِّنَهَا، لَيْسَتْ أُزْمَةً بَيْنَ الْإِيمَانِ وَاللَّاهُوتِ، وَالْمُنْطِقِ وَالْعِلْمِ. لَكِنِّي عَلَى قَنَاعَةٍ بِأَنَّ الْأُزْمَةَ أَعْمَقُ مِنْ ذَلِكَ. فَأَنَا مُقْتِنِعٌ بِأَنَّ الْأُزْمَةَ تَتَعَلَّقُ بِالْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْمُنْطِقِ دَاخِلَ اللَّاهُوتِ، فَهَنَّاكَ الْكَثِيرُ مِنَ اللَّاهُوتِ غَيْرِ الْمُنْطِقِيِّ مِنْ حَوْلِنَا.

قَدَّمْتُ مُؤَخَّرًا مُقَرَّرًا دِرَاسِيًّا فِي الْفَلَسَفَةِ، وَتَحَدَّثْتُ عَنْ "عِلْمِ" اللَّاهُوتِ. أَحَدُ الْحَاضِرِينَ فِي الصَّفِّ كَانَ حَاصِلًا عَلَى دُكْتُورَاةٍ فِي أَحَدِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ. فَأَعْتَرَضَ عَلَى تَسْمِيَتِي لِلَّاهُوتِ بِالْعِلْمِ. وَقَالَ "لَيْسَ اللَّاهُوتُ عِلْمًا". أَجَبْتُهُ: "وَهَلْ هُوَ جَهْلٌ؟" قَالَ: "لَا". فَقُلْتُ: "حَسَنًا، وَمَا مَعْنَى 'عِلْمٍ'؟ مَعْنَاهُ 'مَعْرِفَةٌ'، فَهُوَ مَجَالٌ مَعْرِفِيٌّ، إِذْ يَنْطَوِي عَلَى سَعْيِ وَرَاءِ الْمَعْرِفَةِ، وَوَرَاءِ الْحَقِيقَةِ. وَبِقَدْرِ اهْتِمَامِهِ بِالْحَقِيقَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْوَاقِعِ، يَكُونُ مُهْتَمًّا بِالْعِلْمِ. لَكِنِّ لَا يُمَكِّنُنَا كَأُنَاسٍ عِلْمِيِّينَ أَنْ نَفْصِلَ عُقُولَنَا عَنْ بَاقِي جِسْمِنَا، فَإِلَيْنِ: "حَسَنًا، عِنْدَ مُمَارَسَةِ اللَّاهُوتِ، يُمَكِّنُنَا تَنْجِيَةً عُقُولِنَا جَانِبًا"، أَوْ "يُمَكِّنُنَا التَّخَلِّيَ عَنِ الْمُنْطِقِ وَفَقَطِ الْقِيَامَ بِقَفَرَاتِ إِيْمَانٍ".

ثُمَّ أُزْمَةٌ فِعْلِيَّةٌ الْيَوْمَ فِي اللَّاهُوتِ، إِذْ يُرِيدُ النَّاسُ دِيَانَةً غَيْرَ عَقْلَانِيَّةٍ. لَكِنِّ أُرِيدُ أَنْ نُلَاحِظَ أَيضًا أَنَّ تِلْكَ الْأُزْمَةَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْمُنْطِقِ أَصَابَتْ الْمُجْتَمَعَ الْعِلْمِيَّ أَيضًا، حَيْثُ تَمَّ التَّخَلِّيَ عَنِ نِصْفِ الْمَنْهَجِ الْعِلْمِيِّ، وَحَيْثُ خَلَقْنَا جِيلًا مِنَ الْعُلَمَاءِ مُتَمَرِّسِينَ فِي الْإِسْتِقْرَاءِ، لَكِنِّ ضَعْفَاءَ بِالْقَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْإِسْتِنْبَاطِ. وَلِهَذَا نُصَادِفُ كَثِيرًا اسْتِنْتِجَاتٍ غَيْرَ مَنْطِقِيَّةٍ مُسْتَمَدَّةٍ مِنَ الْمُعْطِيَّاتِ. وَسَنَنْطَرُقُ إِلَى أَوْجِهِ النِّزَاعِ هَذِهِ فِي مُحَاضَرَتِنَا الْمُقْبِلَةِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْنَا لَاهُوتِيُون" و"أَدَهْسِنِي الْأَلْم".